تأثير النصّ القرآني في المستويات البلاغية للمتعلمين

The effect of qur'anic text on the rhetorical levels of learners

تاريخ الوصول..... تاريخ القبول ..... تاريخ النّشر.....

ملخّص:

يتحدث هذا البحث -كما يشير عنوانه- عن (تأثير النص القرآني في المستويات البلاغية للمتعلمتن)، فلا شك أن القرآن الكريم له الأثر العظيم على ملكات المتعلمتن، في اكتساب المهارات على كل المستويات. وقد اجتهد البحث في رصد بعض هذه المستويات، مستعينا بالمنهج الوصفي والتمثيلات اليسيرة، فكان منقسما إلي محورين اثنتن، تطرق الأول إلي دور القرآن الكريم في أداء ملكات المتعلمتن. واشتمل الثاني على فاعلية النص القرآني في العملية التعليمية.

الكلمات المفاتيح:

التعليمية؛ البلاغة؛ تنمية المهارات؛ المستوى اللغوي؛ القرآن الكريم،

Abstract:

This research, as its title points out, speaks of (the effect of the Qur'anic text on the linguistic levels of learners), There is no doubt that the Qur'an has a great impact on the abilities of learners to acquire skills at all levels. The research worked diligently to monitor some of these levels, using the descriptive method and simple representations. It was divided into two axes. The first dealt with the role of the Noble Qur'an in the performance of learners 'abilities. The second included the effectiveness of the Qur'an text in the educational process.

Keywords:

Educational; Rhetoric; Skills Development; linguistic Level; the Holy Quran;

المقدمة:

إنَّ القرآنَ الكريم كتابَ الله المعجز قد نزل حين كانت العربية في أوج منازلها وأرقى درجاتها، وقد تَحَدّى أربابَ الفصاحة والبلاغة أنْ يأتوا بِسُورةٍ مِنْ مِثْلِهِ فلم يستطيعوا. إذ كان النظمُ القرآني في منزلة لا يقدر عليها اللّسانُ البشري، فألفاظُه كانت مُنتقاة مختارة، وتراكيبُه مُحكَمَة النسج مَنظومة نظماً خاصّا، وتصويره يأخذ بالعقول والقلوب. فكان النصُّ القرآني هو النصّ المثالي الذي تُقاس عليه نصوصُ البشر. ولذلك وَجَدنا المتعلِّمِين الأوائل مُتمسِّكِين به مُلتزمين قراءتَه ودرسَه، ويَجعلون حِفْظَه أوّلَ تعليمهم.

وفي زماننا المعاصر بعدما تنوَّعَت المعارف وتفرَّعَت العلوم، واختلَطَت اللغات، وغلَبَت اللهجات، أصابَ كثيرا من الطلبة ضعفٌ في اللغة العربية، وهناتٌ في أساليبِ بحوثهم ورسائلهم، رغم محاولاتهم وسَعْيهم في إصلاح ألسنتهم وتقويم أخطائهم. فهل إذا عادوا إلى النصّ القرآني من خلال حفظه والتعلُّم في ضوء نصوصه، سيبرؤون من تلك الأدواء، ويتجنَّبون كلَّ مشاكلهم اللغوية سواء الكلامية أو الكتابية؟ هذه هي الإشكالية التي سيُجيب عنها البحث، مُتَّبِعاً في تحقيق ذلك المنهَجَ الوصفي التحليلي.

وقد انْقَسَمَ إلى محورَيْن أساسيَّيْن:

- أوّلا: دور القرآن الكريم في أداء ملكات المتعلِّمين
- ثانيا: فاعلية النصّ القرآني في العملية التعليمية، وانقسم إلى:
  - الإثراء اللغويّ لفصاحة المتعلّم
  - الإثراء اللغوي لبلاغة المتعلّم، وتفرّع إلى: إثراء أسلوبي ، وإثراء تصويري.

وفي آخر البحث خاتمةٌ تَلَتها قائمة للمصادر والمراجع.

1. دور القرآن الكريم في أداء ملكات المتعلّمين:

إنَّ للقرآن الكريم أثرا كبيرا في اللغة العربية من حيث حفظُها وانتشارُها، باعتباره كتابَ دين حوى بين دفَّتَيْه أرقى أساليبها وأرفع منازلها. وكانت له مكانة عظيمة في نفوس القدامى الذين جعلوا حفظَه نقطة الانطلاق الأولى لمراحل التعليم، وحرصوا على حفظه في الصدور قبل السطور، فمن حفظ القرآن الكريم حاز نصيبا عظيما من اللغة العربية، لما يتميّز به من رصيد لغويّ ضخم، وطبقة عالية في الكلام.

وقد أعطى القرآنُ الكريم لحافظِهِ المتعلِّمِ قُدرات ومَهارات سَهَّلَت عليه ولوجَ الفنون والخوضَ في مسائلها وقضاياها. ومَنَحَهُ آلياتٍ يستطيع في ضوئها صعودَ درجاتِ التعلُّم وارتقاءَ مراتبِ الفهم.

ويُعَدُّ حفظُ الكلامِ البليغ -وفي قِمَّته القرآنُ الكريم- وتَلَقِّيه من أعظم الوسائل التي تجعل المتلقّي قادرا على نظم الكلام البليغ، قال ابن خلدون: "حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكَثْرة الحفظ من كلام العرب؛ حتى يَرتسم في خَياله المنوالُ الذي نسجوا عليه تراكيبَهم، فينسج هو عليه، ويتنزل بذلك مَنزلة من نشأ مَعهم، وخالَطَ عِبَاراتهم في كَلامهم، حتَّى حصلت له الملكة المستَقِرَّة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم"[1].

وقد تحدَّثَ كَثيرٌ من الباحثين المعاصرين عن أثر حفظ القرآن الكَريم في تَنْمِية مهارات المتعلِّم، سواء كان المتعلّم مُرسِلا أو مُستقبِلا. والإرسال يشمل: التحدُّث والكِتابة، والاستقبال يشمَل: الاستماع والقراءة. وتوصَّلُوا بعد تجاربَ ميدانيةٍ واستبياناتٍ وإحصاءاتٍ إلى عِظَم هذا الأثر في الفرق بين نتائج المتعلمين الحافظين للقرآن ونتائج غير الحافظين[2].

وأبرز المهارات التي يُورثُها حفظُ القرآنِ للمتعلِّم المرسِل هي[3]:

- للمتكلّم: مهارة الإتقان الصوتي (إخراج الحروف من مخارجها وسلامة نُطقها وَفْقَ صفاتها)، واستقامة اللسان (الضبط النحوي والصرفي)، ومهارة استخدام الثروة اللفظية (وضع كلّ لفظٍ في موضعه الصحيح)، ومهارة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومهارة الاقتباس.
- للكاتب: مهارة الضبط الصَّرْفي للألفاظ لإزالة الإبهام ورَفْع الإشكال (وبخاصَّة في الألفاظ التي يَقَعُ فيها اللَّبْس إذا فُقد الضبْط)، ومهارة الضبط النحوي (لتحقيق الغاية من الإعراب في الكشف عن المعاني النحوية، وإزالة اللَّبْس الذي يحصل عند القراءة لما كُتب بغير ضَبْط)، ومهارة الرسم الإملائي الصحيح: وقد أثبت التربويون الارتباط الوثيق بين القراءة ومهارات الإملاء، إذ

قالوا: كلما كثُرت القراءة ازداد إتقان مَهارات الإملاء، على أنّ ذلك لا يَكفي لوحده، بل لا بدّ من الجمع بين دراسة القواعد الإملائية نَظَريا والتدريب عليها عَمَليا.

أمَّا أبرزُ المهارات التي يُورثُها حفظُ القرآنِ للمتعلِّم المستقبِل فهي[4]:

- للسامع: إدراك هدف المتحدِّث (استيعابُ السامعِ للغرض الذي يَسعى المتحدّث إلى إيصاله له)، ومهارة تذكُّر تتابع الأحداث، ومهارة فهم مضمون الحديث، ومهارة استنتاج معاني الكلمات من السياق، ومهارة تذوّق الكلام الجميل، ومهارة اصطفاء المعلومات المهمة، ومهارة استخلاص الأفكار الجزئية، ومهارة استنتاج الأحكام الصحيحة، ومهارة التمييز بين الأفكار الصحيحة والأفكار الخاطئة.

- للقارئ: القراءة في ثقة دون خوف أو تردُّد، والقراءة بصوت واضح ومسموع، وإخراج الحروف من مخارجها الصحيحة، وتوسُّط القراءة بين السُّرْعَة والبُطْء، والضبْط النحوي، والتعبير الصوتي عن المعاني التي يشتمل عليها المقروء، وإحسان الوقف، وقراءة الجملة دفعة واحدة، وعدم التَّكرار للحروف أو الكلمات، وعدم الحذف للحروف أو الكلمات، وعدم الإبدال لحرف مكان حرف أو كلمة مكان كلمة.

ونستطيع أنْ نرتّبَ هذا المهارات الكثيرة ضِمْن أصولٍ تجمَعُها وتنتظمها كما سنرى.

2. فاعلية النصّ القرآني في العملية التعليمية:

ذكرنا سابقًا أهميةَ حفظِ المتعلِّمِينَ للقرآن الكريم، في تَنْميةِ مَلَكاتِهم ومَهاراتهم. وقد ذَكَرَ هذا الدَّوْرَ وهذه الأهميَّةَ كثيرٌ من عُلمائنا، مِنْهُمْ ابنُ الأثير صاحبُ المثل السائر، والقَلْقَشَندي صاحبُ صُبح الأعشى، وابنُ خلدون صاحبُ المقدّمة، وغيرهم.

كما أَوْضَحَتْه إحصاءاتٌ ودراساتٌ لبعض المعاصرين، وأثبَتَتْهُ الممارسة الميدانية للتدريس بنصوص القرآن. وسنذكر في السطور الموالية المكتَسَبات التي يُحرزها المتعلّم حين يتلَقَّى تعليمه في ضوء النصوص القرآنية.

وبالتأمُّل نجدها تتمحور حول الإثراء اللغوي لرصيدَيْ الفصاحة والبلاغة.

2. 1- الإثراءُ اللغويّ لفصاحة المتعلّم:

إنَّ القرآنَ الكريم منظومٌ بِطَرِيقَةٍ فريدة، تجعل المتعلِّم يَكْتَسِبُ أَشْكَالًا مُختلفة من الألفاظ المنتقاة والتراكِيب البديعة.

ذكر السيوطي أنَّ آياتِ القرآن الكريم تتجاوز سِتَّة آلَافِ آيَةٍ، وأنَّ كلماته تتجاوز سبعا وسبعين ألف لفظة[5]، وهي ثروة لفظية غزيرة يستمدّ منها المتعلّم المُباشرُ للنصّ القرآني. وهذه الألفاظ لا تُساق هكذا في التعبير القرآني، بل هي خاضعة لمعايير الاختيار والانتقاء.

فالقرآن الكريم يتأنَّقُ في اختيارِ ألفاظه تأنُّقًا فائقًا، يلْحَظُ فيه الفُروق الدقيقة بين مَعاني الكلمات، فيستَعْمِلُ منها ما يُؤدِّي المعنى في دِقَّةٍ فائقة، تُشْعِرُ قارئه كأنَّ هذا المكان إنما خُلِقَتْ له تلك الكلمة بِعَيْنِها، وأنَّ كلمةً أُخرى لا تَسْتَطِيع تَوْفِيةَ المعنى الذي وَفَتْ به أختُها، فَكُلُّ لفظةٍ وُضِعَتْ لتؤدّي نَصيبَها من المعنى أقوى أداء. "ولو تدبَّرتَ ألفاظَ القرآن في نظمِها، لرأيتَ حركاتِها الصرفيةَ واللغويةَ تجري في الوضعِ والتركيبِ مَجرَى الحروفِ أنفُسِها فيما هي له مِنْ أمْرِ الفصاحة، فيُهيِّئُ بعضُها لبعض، ويُساند بعضاً، ولن تجدَها إلا مُؤتلفةً مع أصواتِ الحروف، مُساوقةً لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركةَ ربما كانت ثقيلةً في نفسِها لسببٍ من أسبابِ الثقل أيُّها كان، فلا تعذُبُ ولا تُساغ، وربما كانَتْ أوكَسَ النصِيبين في حظِّ الكلامِ من الحرف والحركة، فإذا هي استُعْمِلَتْ في القرآن رأيتَ لها شأناً عَجيباً، ورأيتَ أصواتَ الأحرُفِ والحركاتِ التي قبلَها قد امْتَهَدَتْ لها طريقاً في اللسان، واكْتَنَفَتْها بِضُرُوبٍ من النَّغَمِ الموسيقيّ حتى إذا خَرَجَتْ فيه كانتْ أعذبَ شَيءٍ وأرَقَّهُ، وجاءَتْ مُتَمَكِّنَةً في مَوْضِعِها، وكانَتْ لهذا الموضِعِ أَوْلَى الحركاتِ بالخِفَّة والرَّوْعة"[6].

من ذلك لفظة (النذُرُ) فإنَّ الضمَّةَ ثقيلة فيها لتوالِيها على النون والذال معاً، فَضْلاً عن نُبُوّ هذا الحرفِ إذا جاء فاصلةً للكلام؛ ولكنه جاء في القرآن على العكس في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:36]. والسبب هو هذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا)، مع الفصل بالمد، ليكُونَ ثِقل الضمَّة عليه مُستخَفاً بعد، ولِكَون هذه الضمة قد أصابَتْ مَوْضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة. ثم إن الراء من (تمارَوا) جاءت مُساندةً لراء (النذُر)، والغُنّة التي سَبَقَتْ الطاء في نون (أنذرَهم) وفي ميمها،

جاءت مُساندةً للغُنَّة الأخرى التي سَبَقَتْ الذال في (النذر)، حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها مِنْ مثلها، فلا تجفو عليه ولا تنبُو فيه[7].

يقول عبد الله درّاز: "فإذا ما اقترَبْتَ بِأُذنِكَ قليلا قليلا، فَطَرَقَتْ سَمعَكَ جواهرُ حروفِهِ خارجةً من مخارجها الصحيحة، فَاجَأَتْكَ مِنْهُ لَذَّةٌ أخرى في نَظْمِ تلك الحروف وَرَصْفِها وترتيبِ أوضاعِهَا فيما بَيْنَهَا: هذا يَنقر وذاك يَصفر، وثالث يَهمس ورابع يَجهر، وآخر يَنزلق عليه النفَس، وآخر يَحتبس عنده النفَس، وهَلُمَّ جَرّا؛ فترى الجمالَ اللّغويَّ ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة، لا كَرْكَرة ولا تَرْتَرة، ولا رخاوة ولا مُعاظلة، ولا تناكُر ولا تنافُر؛ وهكذا ترى كلامًا ليس بالحَضَرِيّ الفاتِر، ولا بالبَدَوِيّ الخَشِن، بل تراه وقد امتزجَتْ فيه جَزالةُ البادية وفَخَامتُها برقَّةِ الحاضِرة وسلاسَتِها، وقُدِّرَ فيها الأمرُ تقديرًا لا يَبْغي بعضُهُمَا على بعض؛ فإذا مَزِيجٌ منهما كَأَنَّما هو عُصارةُ اللُّغَتَيْن وسُلالَتُهُما"[8].

فتَرسَخ في نفسِ المتعلِّمِ الحريصِ على النصّ القرآني (قراءة وحفظا) قُدرةٌ لغويةٌ تُمكّنه من انتقاء الألفاظ المناسبة. وتجعله يتجنَّبُ ما لا يُناسب المقام، أو كُلَّ حُوشِيٍّ ينفر منه الفهم ويَسْتَهْجِنُهُ السَّمع.

كما يُكسبه كثرةُ اللفظِ القرآني وَجَوْدَتُه طُرقا مختلفةً في التعبير، وتنويعا متجدّدا في الإبداع. قال الراغب الأصفهاني: "ألفاظُ القرآن هي لُبُّ كلامِ العرب وزبدُهُ، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمِهم، وإليها مَفزع حُذَّاقِ الشعراءِ والبلغاء في نَظمهم ونثرهم، وما عَداها وعَدا الألفاظِ المتفرّعَاتِ عنها والمشتقَّات منها، هو بالإضافة إليها كالقُشور والنَّوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحُثالة والتِّبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة"[9].

وتُعدُّ الفاصلة القرآنية من نماذج انتقاء اللفظ القرآني، فهي تأتي مستقرة في قرارها، مُطْمَئِنَّة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها، تعلقا تاما، بحيث لو طُرِحَتْ لاختَلَّ المعنى واضطَرَبَ الفهم، فهي تؤدّي في مَكانها جزءا من معنى الآية، ينقص ويختلّ بنقصانها[10].

ومن ذلك قولُه تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29]، وفي آل عمران: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 29]. فإنَّ المتبادر إلى الذهن في آية البقرة الختم بالقدرة، وفي آية آل عمران الختم بالعلم، ولكن لما كانت آية البقرة عن خلق الأرض وما فيها، على حسب مصلحة أهلها ومنافعهم، وخلق السموات خلقا مستويا محكما من غير تفاوت، والخالق على هذا النسق يجب أن يكون عالما بما فعله، كليّا وجزئيّا، مجملا ومفصلا، ناسب ذلك ختمها بصفة العلم، ولما كانت آية آل عمران مسوقة للوعيد، وكان التعبير بالعلم فيها، يراد به الجزاء بالعقاب والثواب، ناسب ختمها بصفة القدرة القادرة على هذا الجزاء[11].

وقد وَرَدَتْ في القرآن ألفاظٌ هي أطول الكلام عَدَدَ حروفٍ ومقاطع، مما يكون مُستثقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خَرَجَتْ في نَظْمِه مخرجاً سرياً، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقاً وأخفّها تركيباً، إذ تراه قد هيّأ لها أسباباً عجيبة من تكرار الحروف وتنوُّع الحركات، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وُجد ذلك فيها، كقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف:129] فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف وقد جاءت عذوبتها من تنوُّع مخارج الحروف ومن نظم حركاتها، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات؛ إذ تُنطق على أربعة مقاطع. وقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 137] فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهي ثلاثة مقاطع وقد تكرَّرت فيها الياء والكاف، وتوسّط بين الكَافَيْن هذا المدّ الذي هو سرّ الفصاحة في الكلمة كلها[12].

وفي القرآن لفظَةٌ غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسُنت في كلامٍ قطُّ إلا في موقعها منه، وهي كلمة (ضِيزى) من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم:22]. ومع ذلك فإنَّ حُسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه؛ ولو أَدْرَتَ اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرُها؛ فإنَّ السورة التي هي منها وهي سورة النجم، مُفصّلة كلها على الياء؛ فجاءت الكلمة فاصلةً من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب؛ إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله، فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (22)﴾ .

فكانت غرابةُ اللفظ أشَدَّ الأشياء ملاءمةً لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تُصوّر في هيئة النطق بها الإنكارَ في الأولى والتهكُّم في الأخرى؛ وكان هذا التصوير أبلغَ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكَّنَتْ في موضعها من الفصل،

وَوَصَفَتْ حالة المتهكّم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدَّيْن فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كلّ ذلك غرابَةَ الإنكار بغرابتها اللفظية[13].

هذه الطريقة القرآنية في اختيار اللفظ المناسب للمحلّ المناسب، تُعَدُّ أُولى مُكتَسَبات المتعلّم، فإن اللفظ القرآني قد تم اختياره من احتمالاتٍ كثيرة كلها قد تكون مناسبة، لكنه وحده الأنسب لذلك الموضع، كما تم التمهيد له بسلسلة من الحركات والأصوات التي تجعل مجيئه غير نافر ولا مُستهجن. والمتعلّم وإنْ لم يُدرك هذه الطبقة العُليا التي ترقى إلى الأحسن والأجود فإنه حتما مع ممارساته لنصوص القرآن سيُدرك مَرتبة الحَسَن الجيّد.

2. 2- الإثراءُ اللغوي لبلاغة المتعلّم:

أ- الإثراء الأسلوبي:

الجُملة القرآنية بناءٌ أُحْكِمَتْ لَبِنَاتُه، ونَظْمٌ نُسِّقَ أَدَقَّ تَنْسِيق، ولا شكَّ أنَّ الغاية الكبرى للمتعلم أن ينسج نظما راقيا، خاليا من كل ما يَعيب، فيكتب بأسلوب جيّد يُطاول به كبار الأدباء. والمتعلم الذي يندمج مع نصوص القرآن الكريم سيتشرّب من هذا النظم الفريد الذي يُباين قدرة البشر.

ويُقصدُ بنظمِ القرآن طريقةُ تأليفِ حروفِه، وكلماتِه، وجُملِه، وسَبْكِها مع أخواتها في قالبٍ مُحكَم، ثم طريقةُ استعمال هذه التراكيبِ في الأغراض التي يتكلَّم عنها، للدلالة على المعاني بأوضَحِ عبارة في أعذب سياقٍ وأجمل نظم[14].

فالنظمُ يتمثَّلُ في اختيارِ نظمِ المادة اللغوية على نَسَقٍ تتكامَلُ فيه الخصائصُ النوعية للألفاظ، مع المميزاتِ العامّة لبنية الكلام، بحيث يُصبحُ النصُّ مطبوعاً مِن وِجهتيْن: وجهة الألفاظ، وهي أجزاء فردية في عملية الخلق الأدبي، ووجهة تركيب تلك الأجزاء في صُلب البنية اللسانية العامَّة للنصّ[15].

وأسلوبُ القرآن أسلوبٌ يَرُوعُك ويُبهِرُك، فإذا أَخَذْتَ مُفْرداتِهِ كلَّ مُفردٍ على حِدَة، فقد لا تجد فيه كبيرَ رَوْعةٍ، ولا قُوَّةَ أَسْرٍ، ولكنْ عندما انتَظَمَتْ هذه المفرداتُ في سِلْكٍ فَلاءَمَتْ ما قبلها، وارتَبَطَتْ بما بعدها اكْتَسَبَتْ جمالًا وجلالاً.. وإنْ شِئتَ فانظُرْ قولَهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44]. فإنَّك إذا أَخَذْتَ كُلَّ كلمةٍ على حِدَتها، مِنْ غيرِ نَظَرٍ إلى ما قامَتْ به من أداءِ حَظِّها المقسومِ لها في مَعنى الجُملة كلِّها، فقد لا تجدُ لها من التأثير ما تجدُه لها وهي بينَ أخواتها تُؤدِّي معناها[16].

قال عبد القاهر الجرجاني: "إنَّ مبْدَأ العظمةِ في أنْ نُودِيَت الأرضُ، ثم أُمرَتْ، ثم في أنْ كان النداء بـ(يا) دُوْنَ (أي)، نحوُ (يا أيتها الأرضُ)، ثم إضافةِ (الماءِ) إلى (الكافِ)، دونَ أن يقالَ: (ابلعي الماء)، ثم أنْ أُتبِعَ نداءُ الأرض وأمرُها بما هو من شأنها، نداءَ السماء وأمرَها كذلك بما يَخصُّها، ثم أنْ قيل: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾، فجاء الفعلُ على صيغة (فُعِل) الدالَّةِ على أنَّه لَمْ يَغِضْ إلاَّ بأَمْرِ آمرٍ وقُدرةِ قادرٍ، ثم تأكيدُ ذلك وتقريرُه بقولهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، ثم ذِكْرُ ما هو فائدةُ هذه الأمور وهو: ﴿واسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِي﴾، ثم إضمارُ (السفينةِ) قَبْل الذِّكْر، كما هو شرطُ الفخامةِ والدلالةِ على عِظَم الشأن، ثم مُقابلة (قيل) في الخاتمة بـ(قيل) في الفاتحة؟"[17].

ومن ذلك أيضا قضية التقديم والتأخير في النص القرآني، فاللفظ لا يُقَدَّم عن موضعه إلا لخصوصيةٍ اقتَضَاها الأسلوبُ القرآني. كالإنكار الذي انصبَّ على عبادة غير الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: 64]. وقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: 40]. فتقديم (غير) كان له من الحسن والمزية والفخامة ما تعلم أنه لا يكون لو أُخِّرَ فقيل: قل أأتَّخذ غيرَ الله وليّا، وأتدعون غيرَ الله، وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك: أيكون غيرُ الله بمثابة أنْ يُتَّخَذَ وليّا، وأيرضى عاقلٌ من نفسه أنْ يفعل ذلك، أو يكون جَهْلٌ أجهلَ وعَمًى أَعْمَى من ذلك؟! ولا يكون شيءٌ من ذلك إذا قيل: أأتَّخِذُ غيرَ الله وليًّا، وذلك لأنه حينئذٍ يتناول الفعلَ أنْ يكونَ فقط، ولا يزيدُ على ذلك[18].

ومن ذلك الحذف القرآني فقد يُحذف الفاعل مثلا من الجملة عند ما تدلُّ عليه قرينةٌ واضحة، فيصبح كالمتعيّن الذى تنصرف إليه النفس أوّل وهلة، كما تجد ذلك في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [القيامة:26-28]. فالحديث في ذكر الموت، ولا يبلغ التراقيَ عند الموت إلا النفس، وإذا نَظَرْنا إلى الآيتين الكريمتين اللَّتَيْن حُذف الفاعلُ منهما، وهما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ

بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:94]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف:35]، وَجَدْنَا ذكر الفعل في الجملة الأولى مُغنيا عن ذكر فاعله، فالمراد أنَّ التقطُّعَ حَلَّ بينهم مكان التواصل، فكأنه قيل: لقد تَمَّ التقاطع بينكم، وفي الجملة الثانية أغنى ذكر (لَيَسْجُنُنَّه) بما فيه من أدوات التوكيد عن ذكره، وكان المجيء بتلك الجملة مُصوّرا لما حدث من هؤلاء القوم، ومُعَبّرا عما كان من أمرهم، وهم يتشاورون في أمر يوسف، فقد قلّبوا وجوه الرأي بينهم، ثم بدا لهم في عقولهم أمر، عبّروا عنه بقولهم: ليسجننَّه، فكانت الآية حاكيةً لما حدث، مُصوّرة له[19].

فالقرآنُ الكريمُ دقيقٌ في تراكيبه وجمله، فلا تَرِدُ جُمَلُهُ هكذا كيفما اتفق، بل هو يختار الأداة المناسبة، ويختار بين النسبة الإسنادية والنسبة الإضافية، وحذف اللفظ أو ذكره، وتقديمه أو تأخيره، وتعريفه أو تنكيره، ومتى يَبني للمجهول أو للمعلوم، فالتركيب القرآني يحرص على كل تفصيل دقيق، فاستحقّ بهذه السمات الأسلوبية أن يُباينَ النَّظْمَ البشريّ، وأنْ يكُونَ وجهة اللُّغويين والبلاغيين والأدباء والمتعلّمين الذين يَسعون لتطوير تراكيبهم وأساليبهم.

ب- الإثراء التصويري:

إنَّ القرآنَ الكريمَ قد استنْفَدَ الطاقاتِ التَّصْوِيرية للُّغة العربية في التعبير عَنْ أغراضِهِ الدينية، فجاءَتْ صُوَرُهُ حيَّةً مُتحَركةً شاخِصَة، كما جاءَتْ مُتنوِّعَةً مَشحونةً بالمشاعر والانفِعَالات. فالتصويرُ هو الأداةُ المفضَّلةُ في أُسلوب القرآن، وهو مَذهَبٌ مُقرَّرٌ وخُطة مُوحَّدة، وخَصِيصةٌ شاملة، وطريقة مُعيَّنة تُستَخدِمُ بطرائقَ شتَّى، وفي أوضاعٍ مختلفة[20].

والمتعلم يأخُذُ بنصيبٍ من تلك الطاقات التصويرية، فيَسْتَقِي منها ويَنْهَلُ من طرائقها ليرسم صوره الفنية الخاصة مُنتهجا في ذلك أفضل السبل وأنجعها.

إنّ الصورةُ القرآنية مُرتبطةٌ بالسياقِ الواردة فيه، لأداءِ الغرض الديني من وراء التصوير، وهي ليسَتْ صورةً شكليةً بلْ فنيةً مُتولّدَةً من تفاعُل عناصرها، وتلاحُم الشكلِ بالمضمون، والفكرِ بالشعور، والغرضِ الفني بالغرضِ الديني، وهذا ما جَعَلَها تكتَسِبُ هذه الخصوصيةَ المتميزةَ في التعبير والتصوير والتأثير الديني[21].

ومن نماذج التصوير القرآني الصورة التشبيهية، كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: 39]: هذه الصورة التشبيهية يُلاحظ فيها التناسُب الشكلي والتناسُب النفسي معا، فتشبيه القمر في آخر الشهر بالعرجون القديم، غنيّ بالدلالات النفسية، والإيحاءات الشعورية، وليس مقصورا على المشابهة أو المطابقة في الشكل فحسب، وإنما هناك التناسب النفسي بين المشبه والمشبه به أيضا. من ذلك أن كلا من القمر والعرجون القديم كان محطّ الاهتمام والأنظار في الماضي، العرجون لثمره، والقمر لضيائه، ومنها هذه النهاية لكل منهما، في الأفول والزوال والفناء بعد رحلة طويلة من العطاء والتعلّق بهما. فصورة القمر تُثير في النفس المشاعر نفسها التي يثيرها العرجون القديم، من حيث النموّ والتحوّل، ثم الزوال والعدم. والتناسب في الشكل مَلحُوظ في هذا النموّ والتحوُّل بين طرفي التشبيه، كما أن التناسُب النفسي ملحوظ أيضا في نُموّ المشاعر الإنسانية وتطورها، بحسب كل مرحلة لهما، وتبقى هناك وراء هذه الصورة الحسية، دلالة دينية، تُلقي بها هذه الصورةُ في مخيلة القارئ. وهي أنَّ صورة الإنسان في هذه الحياة تشبه هذه الصورة الحسية، في الكون والنبات في نموّها وتحوّلها من الضياء والعطاء إلى الأفول والزوال[22].

ومنه أيضا الصورة الاستعارية كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ [الكهف: 99]. فكلمة يَمُوجُ لا تقف عند حدّ استعارتها لمعنى (الاضطراب) بل إنها تُصوّر للخيال هذا الجَمْعَ الحاشِدَ من الناس احتشادا، لا تُدرك العينُ مَداه، حتى صار هذا الحشدُ الزاخر كبحر، ترى العينُ منه ما تراه في البحر الزاخر من حركةٍ وتموُّجٍ واضطراب، ولا تأتي كلمة (يَمُوجُ) إلا مُوحية بهذا المعنى، ودالّة عليه. وقال سبحانه: ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ [مريم: 4]. وهنا لا تقف كلمة (اشْتَعَلَ) عند معنى انتشر فحسب، ولكنها تحمل معنى دبيبِ الشيبِ في الرأس في بُطء وثبات، كما تَدبُّ النار في الفحم مُبطئة، ولكن في دَأبٍ واستمرار، حتى إذا تمكَّنَتْ من الوقود اشْتَعَلَتْ في قوة لا تُبقي ولا تذر، كما يحرق الشيبُ ما يجاوره من شَعر الشباب، حتى لا يَذر شيئا إلا الْتَهَمَه وأتى عليه، وفي إسناد الاشتعالِ إلى الرأس ما يوحي بهذا الشمول الذى الْتَهَمَ كلَّ شيْءٍ في الرأس[23].

ومن الكنايات المصوّرة الموحية قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ [الإسراء: 29]. ألا ترى أنَّ التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق، فيه تصوير محسوس لهذه الخلّة المذمومة في صورة قوّية بغيضة

منفّرة، فهذه اليد التي غلّت إلى العنق لا تستطيع أن تمتدّ، وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذى لا تستطيع يده أن تمتدّ بإنفاق ولا عطية، والتعبير بِبَسْطِها كلَّ البسط يُصوّر لك صورة هذا المبذّر الذى لا يبقي من ماله على شيء، كهذا الذى يبسط يده، فلا يبقى بها شيء، وهكذا استطاعت الكناية أنْ تنقل المعنى قويّا مؤثرا[24].

وهكذا يمضي التصويرُ القرآني في إنماء مخيلة المتعلّم، وشَحْذها بالصور التشبيهية والمجازية والكِنائية المتنوّعة، ولا شكَّ أنَّ المتعلِّم سينتفع كثيرا من كيفية التصوير القرآني، ومتى يستخدم التشبيه بالأداة، ومتى يستخدمه من غير أداة، ومتى يكون المجاز هو الأنسب دون الكناية، أو العكس. وهل المقام يتطلَّب أنْ يكونَ الخطابُ بأسلوبٍ حقيقي أو غير حقيقي. فالقرآن الكريم هو الوجهة المثلى للرقيّ بالعقل والقلب والقلم. وفيه تتجَلَّى البلاغةُ بأسمى مَعانيها، وكلُّ موضعٍ يطابق مَقامه وهو الغاية التي يرجو تحقيقها كلُّ متكلّمٍ ومُبدع.

3. الخاتمـة:

وفي ختام هذا البحث نستطيع أنْ نوجز أبرز نتائجه في النقاط التالية:

- إنَّ للقرآن الكريم أثرا كبيرا في اللغة العربية من حيث حفظُها وانتشارُها.
- أعطى القرآن الكريم لحافظِهِ المتعلِّمِ قُدرات ومَهارات لغوية سَهَّلَت عليه ولوجَ الفنون والخوضَ في مسائلها وقضاياها.
- يُعَدُّ حفظُ الكلامِ البليغ -وفي قِمَّته القرآنُ الكريم- وتَلَقِّيه من أعظم الوسائل التي تجعل المتلقّي قادرا على نظم الكلام البليغ.
- تحدَّثَ كَثيرٌ من الباحثين المعاصرين عن أثر حفظ القرآن الكَريم في تَنْمِية مهارات المتعلِّم، سواء كان المتعلّم مُرسِلا أو مُستقبِلا. والإرسال يشمل: التحدُّث والكِتابة، والاستقبال يشمَل: الاستماع والقراءة.
- أهمية حفظ القرآن الكريم أوضَحَتْه إحصاءاتٌ ودراساتٌ لبعض المعاصرين، وأثبَتَتْهُ الممارسة الميدانية للتدريس بنصوص القرآن.
- تتمحور المكتَسَبات التي يُحرزها المتعلّم حين يتَلقَّى تعليمه في ضوء النصوص القرآنية حول الإثراء اللغوي لرصيد الفصاحة أو البلاغة.
- كلمات القرآن الكريم تتجاوز سبعا وسبعين ألف لفظة، وهذه ثروة لفظية غزيرة يستمدّ منها المتعلّم المُباشرُ للنصّ القرآني. وهي ألفاظ لا تُساق هكذا في التعبير القرآني، بل هي خاضعة لمعايير الاختيار والانتقاء.
- اختيار اللفظ المناسب للمحلّ المناسب، تُعدّ أولى مُكتَسَبات المتعلم.
- المتعلم وإن لم يُدرك هذه الطبقة العليا التي ترقى إلى الأحسن والأجود فإنه حتما مع ممارساته لنصوص القرآن سيُدرك مرتبة الحسن الجيّد.
- لا شكَّ أنَّ الغاية الكبرى للمتعلم أن ينسج نظما راقيا، خاليا من كل ما يَعيب، فيكتب بأسلوب جيّد يُطاول به كبار الأدباء. والمتعلم الذي يندمج مع نصوص القرآن الكريم سيتشرّب من هذا النظم الفريد الذي يُباين قدرة البشر.
- المتعلم يأخذ بنصيبٍ من تلك الطاقات التصويرية، فيستقي منها وينهل من طرائقها ليرسم صوره الفنية الخاصة مُنتهجا في ذلك أفضل السبل وأنجعها.

4. قائمة المصادروالمراجع:

القرآن الكريم.

- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ت محمّد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م.
- أثر حفظ القرآن على تنمية مهارات الاستقبال اللّغوي، فائزة جميل محمَّد معلم، إشراف سراج وزّان، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة، 1421-1422هـ، 2001م.
- الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: محمد كريم الكواز، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط1، 1996م.

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط8، 2005م.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني، ت د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م.
- الكتاب السنوي الثالث مجلة الجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية، جامعة الملك سعود، الرياض، 1411هـ، 1991م.
- مباحث في إعجاز القرآن: د مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط3، 2005م.
- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: تحقيق صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ.
- مقدّمة ابن خلدون، تصحيح وفهرسة: أبو عبد الله السعيد المندوه، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ط1 1414هـ.
- من بلاغة القرآن: أحمد البدوي، نهضة مصر، القاهرة، 2005م.
- النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، دار القلم، بيروت، ط2، 2005م.
- وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط1، 2001م.

5. الهوامش:

(1) مقدّمة ابن خلدون، تصحيح وفهرسة: أبو عبد الله السعيد المندوه، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ط1 1414هـ ج2 ص265.

(2) يُنظر: أثر حفظ القرآن على تنمية مهارات الاستقبال اللّغوي، فائزة جميل محمَّد معلم، إشراف سراج وزَّان، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة، 1421-1422هـ، 2001م. (ص276 – 320).

ويُنظر مقال: دور القرآن الكريم في تنمية مهارات القراءة والكتابة: د. سعيد بن فالح المغامسي، الكتاب السنوي الثالث مجلة الجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية، جامعة الملك سعود، الرياض، 1411هـ، 1991م. ص233.

ويُنظر مقال: الفروق بين مهارات القراءة والإملاء والحساب بين طالبات تحفيظ القرآن الكريم والمدارس العادية: د. هانم حامد ياركندي، في المجلة السابقة، ص257.

ويُنظر مقال: دراسة استطلاعية للعلاقة بين حفظ القرآن وتلاوته ومستوى الأداء لمهارات القراءة: د. محمد موسى عقيلان، في المجلة السابقة، ص342.

ويُنظر مقال: دور القرآن الكريم في تنمية المهارات الأساسية: د. محمد رواس، في المجلة السابقة، ص394.

ويُنظر مقال: دور القرآن الكريم في تنمية المهارات الأساسية: د. حمد بن إبراهيم، في المجلة السابقة، ص400.

(3) يُنظر نفسه.

(4) يُنظر نفسه.

(5) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م، ج1 ص232 وص242.

(6) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط8، 2005م، ص156.

(7) يُنظر المرجع نفسه، ص157.

(8) النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، دار القلم، بيروت، ط2، 2005م، ص135.

(9) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: تحقيق صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ ص55.

(10) يُنظر من بلاغة القرآن: أحمد البدوي، نهضه مصر، القاهرة، 2005م، ص65.

(11) يُنظر نفسه ص67.

(12) يُنظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: الرافعي، ص158

(13) يُنظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: الرافعي، ص158

(14) مباحث في إعجاز القرآن: د مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط3، 2005م، ص133.

(15) الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: محمد كريم الكواز، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط1، 1996م، ص293.

(16) يُنظر: من بلاغة القرآن: أحمد البدوي، نهضة مصر، القاهرة، 2005م، ص49.

(17) دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني، ت د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م، ص40.

(18) يُنظر دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني، ص86.

(19) يُنظر: من بلاغة القرآن: أحمد البدوي، ص96.

(20) يُنظر: الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: محمد كريم الكواز، ص383.

(21) وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط1، 2001م، ص71.

(22) يُنظر: الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: محمد كريم الكواز، ص391.

(23) يُنظر من بلاغة القرآن: أحمد البدوي، ص167.

(24) يُنظر المرجع نفسه، ص173.